فأجاب الفأر: «نحن ندرك هذا دائمًا؛ نشعر بخدر في أطراف ذيولنا. إنه الشعور نفسه الذي يصيبك عندما تتخدر قدمك، جميعنا شعرنا بذلك هذا الصباح. حسبت في البداية أنني أصبت بالتهاب المفاصل من جديد، وأخبرت أخي بذلك فقال إنه يشعر الشعور نفسه، وأجمعنا على أن المشكلة تكمن في السفينة. عليك ألا تبحر عليها مجددًا، الآن علي أن أغادر؛ فعلينا أن نبحث عن مكان جيد نسكن فيه على الجزيرة. وداعًا!»

لوح الدكتور دوليتل بيده مودعًا الجرذ وهو يهرع إلى السفينة وصاح: «أشكرك على إخبارنا.»

غادر الطبيب وحيواناته السفينة، وحملوا معهم أوعية لملئها بالماء، وعجلوا في سيرهم على الشاطئ لئلا يزعجوا عصافير الجنة التي أخذت تستريح.

قال الدكتور دوليتل متعجبًا: «ترى ما اسم هذه الجزيرة؟ يوجد الكثير من الطيور هنا.»

قالت داب داب: «هذه هي طيور الكناري. ألا تسمع غناءها؟»

فصاح الطبيب: «آه. بلى أسمعه. ما أسخفني! ترى هل يستطيعون أن يدلونا على مكان نعثر فيه على الماء.»

فنادى على طيور الكناري التي سرها أن تساعده؛ كانت قد سمعت عنه من الطيور الأخرى، فأعطته جولة حول الجزيرة وصحبته هو وحيواناته إلى شلالاتها وحقولها الخضراء، وإلى نبع مياه عذب ملأ منه هو والحيوانات دلاءهم بالماء، وشعر الجميع بسعادة بالغة.

فضل البوشميبوليو الأعشاب الخضراء كثيرًا على التفاح المجفف الذي كان يأكله على السفينة. أما جاب جاب فتسنى له أن يحفر الأرض بحثًا عن الجذور اللذيذة، وأحب الجميع وادي قصب السكر البري الذي وجدوه بجانب النبع.

لكن فجأة طار اثنان من عصافير الجنة في لهفة إليهم.

قالا: «حضرة الطبيب! وصل القراصنة إلى الشاطئ. وجميعهم على متن سفينتكم الآن.»

سأل الدكتور دوليتل: «كل القراصنة على متن سفينتنا؟»

فأجاب عصفورا الجنة: «أجل، إنهم يسرقون كل شيء! لقد رأيناهم جميعًا وهم يهبطون إلى الطابق السفلي من السفينة.»

قالت داب داب: «إن كانوا جميعًا على متن سفينتنا، فهذا يعني أن سفينتهم خاوية!»

قال الدكتور دوليتل: «أنت محقة! هذه فكرة رائعة!»

قالت جاب جاب: «فكرة! لم أسمع أحدًا يقول فكرة. عم تتحدث؟»

أجابه الدكتور دوليتل: «آسف يا جاب جاب. ليس هناك وقت لشرح كل شيء. علينا أن نسرع!»

وجمع جميع حيواناته، وودعوا عصافير الكناري سريعًا، ثم هرعوا إلى الشاطئ.

وجدوا سفينة القراصنة ذات الشراع الأحمر راسية في الماء، وليس على متنها أحد كما أخبرهم عصفورا الجنة، فأخبر الدكتور دوليتل حيواناته بأن تسير بهدوء وتتسلل جميعًا إلى سفينة القراصنة.

الفصل الخامس عشر

تنين الساحل البربري

كان كل شيء سيسير على ما يرام لو لم يكن الخنزير جاب جاب قد أصيب بالبرد.

كان الطبيب وحيواناته قد جذبوا مرساة سفينة القراصنة في هدوء تام، وأخذت السفينة تتحرك لتخرج من الخليج بهدوء. لكن قبل أن يبتعدوا، عطس جاب جاب بصوت مرتفع جدًّا حتى إن القراصنة على السفينة الأخرى سارعوا بالصعود من الطابق السفلي.

نظروا إلى سفينتهم، فوجدوها تبحر، فجذبوا مرساة السفينة التي يركبونها، وبدءوا في مطاردة الدكتور دوليتل. كانوا بحارة مهرة؛ استطاعوا في غضون دقائق أن يتجهوا بها نحو فُم الخليج، واعترضوا طريق الدكتور دوليتل الذي لم تعد أمامه وسيلة للعودة إلى عرض البحر.

لوح زعيم القراصنة بقبضته في وجه الدكتور دوليتل قائلًا: «هاه! وقعت في قبضتي. حسبتَ أنك تستطيع أن تسرق سفينتي. أليس كذلك؟ لستَ بالمهارة الكافية في الإبحار لتفر مني؛ لهذا أُدعى تنين الساحل البربري! ليس هناك من يضاهيني قوة.»

ثم نظر إلى جميع الحيوانات التي مع الدكتور دوليتل وقال: «أريد هذه البطة! وهذا الخنزير! سنتناول عشاءً طيبًا الليلة.» فضحك سائر القراصنة.

أخذ جاب جاب المسكين يبكي، وبدأت داب داب تفكر في خطة للفرار، ومالت البومة تو تو على أذن الدكتور دوليتل لتهمس له بشيء.

قالت تو تو: «دعه يواصل الكلام، وحاول أن تكون لطيفًا لئلا يغضب. إن كانت الجرذان محقة، فلن تلبث سفينتنا أن تغرق. الجرذان لا تخطئ أبدًا، لذا حاول أن تهدأ وتدعه يواصل حديثه إلى أن تغرق السفينة.»

همس الدكتور دوليتل له قائلًا: «لكن الجرذان قالت إن السفينة ستغرق بحلول صباح الغد، فهل تتوقع مني أن أدعه يواصل حديثه إلى ذلك الحين؟ حسنًا، أعتقد أننا لا نملك خيارًا آخر. أليس كذلك؟ أتساءل عما علي أن أتحدث ...»

وعندما التفت الدكتور دوليتل خلفه لينظر إلى القراصنة، وجد السفينة التي يركبونها قد اقتربت أكثر، والقراصنة على متنها يضحكون. صاح أحدهم: «ترى من منا سيمسك بالخنزير!» وظلوا يضحكون بعض الوقت.

كان جاب جاب المسكين يشعر بالخوف، فتأهب البوشميبوليو للقتال؛ فمن شيمه الدفاع عن أصدقائه، مع أنه مخلوق خجول هادئ. أما جيب فوقف بين الخنزير والقراصنة فربما اضطر لحماية جاب جاب.

لكن بعدئذ توقف القراصنة عن الضحك، وبدت عليهم الجدية الشديدة. ثمة ما كان يزعجهم. تلفتوا حولهم في حيرة شاعرين بعدم الارتياح لخطب ما.

صاح تنين الساحل البربري: «فروا بسرعة! السفينة يتسرب إليها الماء يا رجال!»

نظر القراصنة حولهم بإمعان. كانت سفينتهم تغرق وتغوص في الماء أكثر فأكثر.

غاصت مقدمة السفينة أولًا إلى عمق شديد حتى إن مؤخرتها ارتفعت عاليًا، فاضطر القراصنة إلى التشبث بسورها، ثم اندفع ماء البحر بسرعة هادرة من جميع نوافذ وأبواب السفينة إلى أن غاصت آخر الأمر في قاع البحر تاركة القراصنة الستة يقفزون في الماء.

بعضهم أخذ يسبح نحو الشاطئ، والبعض الآخر حاول أن يصعد إلى السفينة مع الدكتور دوليتل. لكن جيب وقف يحرس سور السفينة بيقظة، وأخذ يعض وينبح كلما حاول أي منهم أن يصعد على متنها. وبدأ القراصنة يفزعون.

ثم لاحظ أحدهم شيئًا يسبح نحوهم في الماء، وصاح: «أسماك قرش! رجاء دعنا نصعد إلى متن السفينة، ستأكلنا أسماك القرش!»

فنظر الدكتور دوليتل إلى الماء بالقرب من القراصنة، ووجد أسماك القرش الكبيرة الرمادية تسبح في الماء، وكان لابد أن يقر بأن هذا موقف سيء للغاية حقًا.

وأخرجت إحدى أسماك القرش رأسها من الماء وقالت: «هل أنت الدكتور دوليتل؟»

فقال الدكتور دوليتل: «نعم. هل سمعت بي؟»

فأجابت سمكة القرش: «لا يوجد مخلوق على البر أو البحر لم يسمع بالدكتور دوليتل. هل يزعجك هؤلاء الرجال؟ نحن أيضًا نعلم كل شيء عن هؤلاء القراصنة. نستطيع أن نلتهمهم من أجلك إن شئت.»

قال الدكتور دوليتل: «لطيف منكم أن تعرضوا هذا، لكنني لا أرى هذا ضروريًّا، لكن قد نطلب منكم أن تسدونا معروفًا آخر. هلا أبقيتموهم جميعًا داخل الخليج إلى أن نغادر؟ إن عجزوا عن الوصول إلى السفينة أو الشاطئ فهذا سيساعدنا. ويمكنكم أن تطلقوا سراحهم عندما نغادر.»

قالت سمكة القرش: «سمعًا وطاعة يا حضرة الطبيب.» وطوقت أسماك القرش القراصنة في الماء.

كانت سفينة الدكتور دوليتل على وشك الإبحار، لولا أن الدكتور دوليتل رفع يده قائلًا: «مهلًا.» وعاد إلى سور السفينة ونادى على القراصنة.

ثم قال: «ثمة شيء آخر علي أن أقوله لكم: يجب أن تكفوا عن القرصنة من الآن!»

فقال زعيم القراصنة: «ماذا قلت؟! ولماذا علينا أن نكف عن القرصنة؟»

وضحك سائر القراصنة؛ إذ نووا أن يجدوا سفينة أخرى ما إن يغادر الدكتور دوليتل، ويعاودوا السرقة على الفور.

قال الدكتور دوليتل: «عليكم أن تكفوا عن القرصنة لأنني أمرت بهذا. بإمكانكم أن تروا أن أسماك القرش تنفذ أوامري، وجميع الحيوانات على البر والبحر أيضًا، فإن واصلتم السرقة وآذيتم الناس، فلن تكون أسماك القرش بهذا اللطف معكم، وستواجهون المشاكل مع الطيور، والجياد، والكلاب، والقرود.»

نظر زعيم القراصنة إلى أسماك القرش، وأدرك أن الدكتور دوليتل يقول الحقيقة. لن تتركهم الحيوانات وشأنهم قط.

فسأل: «لكن ماذا سنفعل؟ لا نعرف عملًا آخر.»

أجاب الدكتور دوليتل: «بإمكانكم أن تتعلموا الزراعة. هذا عمل طيب شريف؛ بإمكانكم أن تعينوا الناس بدلًا من السرقة منهم.»

كاد زعيم القراصنة يتذمر لولا أنه شعر بإحدى أسماك القرش تمسه برفق في قدمه.

فصاح: «حسنًا! حسنًا! سنكون مزارعين، نعد بهذا. هل لنا أن نسبح نحو الشاطئ الآن.»

قالت داب داب: «لكن ... كيف تأمن لقراصنة يا حضرة الطبيب؟»

فأجاب الدكتور دوليتل: «إنهم يدركون أن الحيوانات ستراقبهم.»

قال القراصنة جميعًا: «نعد بهذا! سنكون مزارعين ونحيا حياةً هادئة.»

ثم سبح القراصنة — أو المزارعون الجدد — نحو الشاطئ، وأبحر الدكتور دوليتل وحيواناته مرة أخرى.

الفصل السادس عشر

تو تو المستمعة

عاود الدكتور دوليتل وحيواناته الاتجاه مرة أخرى إلى بودلبي.

مال الطبيب على السور عند مؤخرة السفينة، وشاهدة جزيرة الكناري وهي تتوارى عن ناظره شيئًا فشيئًا، وتساءل عن حال القردة وعما يحدث في بودلبي أون ذا مارش.

ركضت داب داب آتية جانبه وهي تصيح: «هذه السفينة جميلة يا حضرة الطبيب! هل تفقدتها؟ حقًّا إنها رائعة. الفُرش في الطابق السفلي من الحرير، وثمة المئات من الوسائد الناعمة في أرجاء الغرفة، وبسط، وأطباق من الفضة، وكل أصناف الطعام الرائعة.»

قال الدكتور دوليتل: «يبدو هذا رائعًا.»

أضافت داب داب: «وهناك أيضًا غرفة مغلقة! بابها ضخم، ثقيل عليه قفل كبير. يقول جيب إن القراصنة على الأرجح قد خبئوا كل كنوزهم هنا. عليك أن تهبط إلى الطابق السفلي يا حضرة الطبيب. لعلك تستطيع فتح الباب.»

هبط الدكتور دوليتل إلى الطابق السفلي. وكانت داب داب محقة؛ فالسفينة كانت جميلة، بل لم ير الدكتور دوليتل قط مكانًا بهذا الجمال.

وجد جميع الحيوانات مجتمعة عند الباب المغلق، جميعهم يتحدثون في آن واحد محاولين أن يتوصلوا إلى ما بداخل الغرفة التي تقع خلفه، فأدار الدكتور دوليتل مقبض الباب، لكنه لم يفتح، فبحث هو وجميع الحيوانات في أرجاء الغرفة عن مفتاح الباب.

رفعوا البسط، وبحثوا تحت الكراسي والنضد، وفي الأدراج وخزانات الثياب، ووجدوا الكثير من الأشياء الرائعة، لكنهم لم يعثروا على مفتاح الغرفة، فعادوا جميعًا للوقوف بجانب الباب. ونظر جيب من خلال فتحة المفتاح، لكنه لم ير شيئًا.

ثم قالت تو تو: «مهلًا جميعًا. رجاء لا تتحركوا للحظة.» فوقفوا جميعًا ساكنين. ثم تابعت: «أظن أنني أسمع شخصًا بالغرفة.»

فأرهفوا جميعًا السمع مجددًا.

ثم قال الدكتور دوليتل: «أظن أنك مخطئة. لا أسمع شيئًا.»

قالت تو تو: «أنا واثقة من هذا! صه! ها هو الصوت مجددًا. ألا تسمعونه؟»

هز الدكتور دوليتل وجميع الحيوانات رءوسهم نفيًا.

قالت تو تو: «أنا واثقة من أنني أسمع شخصًا ما يضع يده في جيبه.»

فقالت داب داب: «هذا سخف، كيف تستطيعين سماع هذا؟ لا يصدر صوت عن هذا تقريبًا.»

فقالت تو تو: «بل أستطيع قطعًا أن أسمع هذا. أستطيع أن أسمع الصوت الذي تصدره القطة عندما تغمض عينيها. أؤكد لكم هذا؛ هناك شخص ما على الجانب الآخر من هذا الباب يضع يده في جيبه.»

سأل الدكتور دوليتل: «حسنًا، وما الذي يجري الآن؟»

قالت تو تو: «لست متأكدًا مما يجري. ارفعني إلى جانب فتحة المفتاح لأسمع على نحو أفضل.»

رفع الدكتور دوليتل تو تو وحملها على مقربة من مقبض الباب.

قالت تو تو بعد برهة: «إنه يحك وجهه بيده اليسرى. إنها يد صغيرة ووجه صغير. الآن هو يزيح شعره عن وجهه.»

سأل الدكتور دوليتل: «هل ثمة شيء آخر يجري؟»

أجابت تو تو: «هذا الشخص حزين. أسمع بكاءه. إنه يحاول جاهدًا ألا يصدر ضجيجًا، لكنني أسمع دموعه وهي تتساقط.»

قال الدكتور دوليتل: «هذا المسكين حزين. علينا أن ندخل ونرى ما خطبه. بسرعة! ليعثر لي أحدكم على فأس. سأحطم هذا الباب.»

الفصل السابع عشر

ثرثارو المحيط

عثرت الحيوانات سريعًا على فأس، فرفعه الدكتور دوليتل، وهوى به بقوة مرتين، صانعًا فتحة بالباب تكفي بالكاد للزحف عبرها.

كانت الغرفة في البداية مظلمة إلى حد يحول دون رؤية أي شيء، فأشعل الدكتور دوليتل عود ثقاب.

كانت غرفة صغيرة جدًّا، ليس بها أي نوافذ، وسقفها منخفض. ليس بها إلا مقعد صغير بلا ظهر، وقد جلس في منتصفها صبي صغير في الثامنة من العمر تقريبًا، يبكي بحرقة.

شعر الصبي بالخوف من هذا القادم وكل حيواناته العجيبة، لكنه كف عن البكاء ما إن رأى وجه الدكتور دوليتل، ونهض من مجلسه وقال: «أنت لست واحدًا من هؤلاء القراصنة، أليس كذلك؟»

رجع الدكتور دوليتل برأسه إلى الوراء وضحك، وضحك الصبي بدوره.

قال الصبي: «ضحكتك ودودة للغاية. ليست كضحكة القراصنة على الإطلاق، لكنني أشعر بالقلق. هل رأيت عمي؟»

تساءل الدكتور دوليتل: «عمك؟ هل كان معك على متن هذه السفينة؟»

أجاب الصبي وعيناه تدمعان: «نعم.» ثم أردف: «كنا نصطاد السمك معًا عندما أسرنا القراصنة. أرادوا أن ينضم عمي إلى طاقمهم، وأبعدوه عني عندما رفض هذا.»

سأل الدكتور دوليتل: «وهل لديك أدنى فكرة عما حدث له؟»

صاح الصبي: «لا، لقد احتجزوني في هذه الغرفة. لم أغادرها منذ أكثر من أسبوع! سألتهم عن عمي، لكنهم رفضوا إخباري بأي شيء عنه. أخشى أن يكون قد غرق!»

قال الدكتور دوليتل: «حاول ألا تقلق.» ومسح على رأس الصبي واستطرد: «سنفعل كل ما بوسعنا للعثور عليه.»

فقال الصبي: «آه، شكرًا!»

ثم سأل الطبيبُ الصبي: «هل تستطيع أن تصف لي عمك؟» وأخرج مفكرته وقلمه الرصاص.

رد الصبي: «إنه فارع الطول، أصهب، سفينته اسمها «سالي المقدامة». لا أملك أدنى فكرة عما حل بها.»

وعندما فرغ الصبي من قصته، نام قليلًا في ضوء الشمس، فاتجه الدكتور دوليتل إلى سور سفينته وصاح مناديًا دلافين البحر إلى أن ظهرت مجموعة منها بجوار قاربه.

حدثها الطبيب قائلًا: «أبحث عن شخص ما. هل رأيتم صيادًا طويلًا أصهب الشعر؟ نعتقد أنه مفقود منذ أسبوع أو اثنين.»

قال دولفين: «هل تقصد مالك سفينة «سالي المقدامة»؟ رأينا السفينة. إنها بقاع البحر، لكن الصياد ليس بها. لا أستطيع أن أدلك على مكانه، لكنه لم يغرق.»

سأل الدكتور دوليتل: «كيف تأكد لك هذا؟»

أجاب الدولفين: «آه، كان هذا سيتنامى إلى علمنا. نحن ندعى ثرثارو المحيط لأننا نعلم بكل ما يجري في الماء. إن كان هذا الصياد قد غرق، كنا سنعرف ذلك.»

قال الدكتور دوليتل: «حسنًا. هذا على الأقل نبأ سار. أعتقد أننا سنضطر إلى مواصلة البحث عنه. إن بلغكم أي شيء عنه، رجاء أبلغونا به، فابن أخيه يشعر بالقلق الشديد بشأنه.»

ووعدت الدلافين بهذا.

طلب الدكتور دوليتل من الحيوانات تشكيل فرق بحث؛ فوافقت تو تو وداب داب على أن تطيرا فوق ماء المحيط للبحث عن أثر للصياد، وقالت عصافير الجنة إنها بدورها ستبحث عنه.

قال الدكتور دوليتل لفرق البحث: «تذكروا أن تسألوا كل من تلقونه إن كان قد رأى رجلًا طويلًا أصهب الشعر. لا بد أنه في مكان ما.»

الحيوانات الأخرى حرصت على تسلية الصبي على ظهر السفينة، فلعبت معه، وركضت على ظهر السفينة. وكما يمكن أن تتوقع، لم يكن الصبي قد رأى من قبل بوشميبوليو، فتساءل إن كان يتوهم.

لم يمانع البوشميبوليو أن يحدق به الصبي، إذ أدرك أنه لا يقصد سوءًا، بل إنه سمح له بركوبه والتجول به على ظهر السفينة.

أما الدكتور دوليتل، فكان صامتًا قلقًا بشأن عم الصبي. تأمل المحيط، وتمنى أن تبلغه سريعًا أنباء عن الصياد.

الفصل الثامن عشر

جيب المنقذ

أدركت داب داب وتو تو أنهما لا تستطيعان أن تبحثا في كل مكان؛ كان هذا متعذرًا حتى مع مساعدة عصافير الجنة. لذا ذهبت تو تو للتحدث مع النسور، فعثرت على نسر أسود، ونسر أصلع، ونسر ذهبي. واتفقوا جميعًا على أن يحلقوا فوق الأدغال، والغابات، والجبال للبحث عن عم الصبي.

عادت النسور في اليوم التالي إلى سفينة الدكتور دوليتل، وقال النسر الأصلع للطبيب: «نحن آسفون. لم نر الرجل الذي وصفته، لكننا سنواصل البحث عنه، رغم أنني لا أحسبه على البر على الإطلاق.»

شكر الدكتور دوليتل النسور على مساعدتها.

وقال وهو يهز رأسه بأسف: «أعتقد أن الحيلة أعيتني. لم أعد أدري على الإطلاق أين أبحث عن الرجل.»

قال جيب: «لم لا تدعني أحاول البحث عنه.»

فسألت داب داب: «أنت؟ ما الذي يسعك فعله؟»

قال جيب: «قد أجده باستخدام حاسة الشم لدي.»

قالت داب داب: «لا تكن سخيفًا. نحن في منتصف المحيط. لن يسعك تبين أي رائحة هنا!»

قال جيب: «ستدهشك قدراتي»، ورفع رأسه — إذ لم يكن ليسمح لبطة بإهانته — ثم أردف: «حضرة الطبيب، هلا سألت الصبي إن كان معه شيء يخص عمه؟»

نفذ الدكتور دوليتل ما طلبه منه جيب، فأعطاه الصبي خاتمًا ذهبيًا معلقًا بخيط. وأردف: «أعطاه عمي لي ما إن رأينا سفينة القراصنة.»

قال جيب للدكتور دوليتل: «لا، هذا الخاتم لن يجدي نفعًا. هلا سألته إن كان معه شيء من قماش؟»

نفذ الدكتور دوليتل ما طلبه منه جيب للمرة الثانية، فأعطاه الصبي عصابة رأس لونها أحمر فاتح.

فقال جيب: «رائع، ليتك الآن تسمح لي فقط بتشممها …» وألصق أنفه بعصابة الرأس واستنشق رائحتها عدة مرات.

ثم قال: «لا تقلق أيها الطبيب. رجاءً أخبر الصبي بأنني سأعثر على عمه، وسأجد أثره حتمًا.»

لكن هذا استغرق عدة أيام. تمثلت المشكلة في الريح؛ إذ لم يستطع جيب أن يشم إلا الروائح التي تهب تجاههم، ولم تهب الريح في الأيام الأولى إلا من الشرق، من ثم لم يستطع جيب أن يشم إلا الروائح القادمة من هذا الاتجاه. كان شخص ما يعد يخنة من لحم شاة، وآخر كان يحرق بعض أوراق الأشجار، لكن لم يكن هناك أثر لرائحة العم.

لكن عندما استيقظ الجميع صباح يوم ما كانت الريح تهب من الغرب، فاتجه جيب سريعًا إلى السور بجانب السفينة، واستنشق الهواء عدة مرات، ثم نادى على الدكتور دوليتل.

قال: «وجدته! أعلم إلى أين علينا أن نتجه.»

رد الدكتور دوليتل: «حقًّا؟ هذا مثير للغاية!»

قال جيب: «سأقف عند مقدمة السفينة، اتبعوا أنفي وأنا أتنسم الهواء، سنقصد العم مباشرة.»

نفذوا ما طلبه منهم جيب، لكنهم لم يعثروا على العم، بل وجدوا حجرًا كبيرًا أبحروا حوله مرارًا وتكرارًا، لكن لم يكن هناك أحد.

وقال جيب بإصرار: «لكنني أشم الرجل. إنه حتمًا على هذه الصخرة!»

طارت إحدى عصافير الجنة فوق الصخرة جيئة وذهابًا عدة مرات، ثم أسرعت عائدة إلى السفينة وأخبرت الدكتور دوليتل بأن بالصخرة فتحة كبيرة في منتصفها.

قال الدكتور دوليتل: «حسنًا، سيتعين علينا أن نرسو على الشاطئ.»

رست سفينتهم إلى جانب الصخرة، وتسلقها الدكتور دوليتل، وسار إلى الفتحة الموجودة بها. كان هناك طريق طويل يؤدي إلى داخلها، فأشعل الطبيب عود ثقاب وسار في الظلام.

احتاجت عيناه إلى بعض الوقت لتعتادا الظلمة، لكنه آخر الأمر لاحظ شيئًا أمامه مباشرة. استغرق وهلة ليدرك ماهيته؛ وكان هذا عم الصبي! كان يغط في نوم عميق بالكهف.

18

الفصل التاسع عشر

الوطن

فرح الصبي وعمه بلقاء أحدهما الآخر! وحمل العم ابن أخيه واحتضنه بقوة.

سأل الصبي عمه: «ما الذي حدث لك؟»

فأجاب العم: «عندما رفضت الانضمام إلى القراصنة تركوني وحدي على هذه الصخرة. لم يكن لدي إلا القليل من الطعام والماء، ومن حسن الحظ أنكم عثرتم علي في هذه اللحظة.»

أيده الدكتور دوليتل قائلًا: «أجل، جميعنا محظوظون. أظن أن علينا أن نعيدكما إلى بلدتكما، أنا واثق من أن الجميع هناك سيكونون قلقين عليكما.»

تبع الدكتور دوليتل إرشادات العم للعودة إلى البلدة التي بلغوها في غضون بضع ساعات، وهناك ركض أهل البلدة لاستقبالهم وهم يرسون عند الميناء. وما إن رأوا الصبي الصغير وعمه، حتى أخذوا يهللون.

تجمعوا حول الصبي، وأصغوا إليه وهو يروي ما حدث. وقال الصبي: «لولا جيب، لما عثرنا قط على عمي!»

وهرعت امرأة تشق طريقها بين الحشد وجذبت الصبي، وحملته محتضنة إياه بين ذراعيها وهي تصيح: «صغيري!»

فقال الصبي: «أمي»، واحتضن المرأة بقوة وأجهش بالبكاء.

سار عمدة البلدة إلى الدكتور دوليتل وسأله: «كيف أشكرك؟ كنا حتمًا سنفقدهما لولا مساعدتك.»

قال الدكتور دوليتل: «نحن نقدم المساعدة دائمًا متى استطعنا.»

فقال عمدة البلدة: «رجاء امكث معنا الليلة. سنقيم مأدبة وحفلًا راقصًا للاحتفال، وسيشرفنا هذا.»

وسار الجميع إلى البلدة حيث أعدت الموائد وسط ميدانها، ووضع أهل البلدة الزينة، وأضاءوا كل مصابيح الشوارع، وأحضروا جميعًا الطعام لاقتسامه مع الآخرين، فتوفر الكثير من الطعام، وجلسوا جميعًا وحظوا بوجبة رائعة.

ألقى عمدة البلدة بعد العشاء خطابًا شكر فيه الدكتور دوليتل وحيواناته مجددًا وقال: «الآن نود أن نهدي هذه الهدية إلى جيب. هدية مميزة إلى كلب مميز.»

وأخرج صندوقًا صغيرًا، ففتحه الدكتور دوليتل لجيب وقال: «رباه! كم هي هدية جميلة.» وحملها لجيب.

كانت الهدية قلادة من الذهب الخالص كُتب عليها: «إهداء إلى جيب: أبرع كلب في العالم.»

هز جيب ذيله قائلًا: «شكرًا.» وطلب من الدكتور دوليتل أن يترجم ما قال بلغة البشر أيضًا.

استمر الحفل وقتًا طويلًا من الليل، وغنى الجميع، ورقصوا، وضحكوا. كان هذا أفضل وقت قضاه الدكتور دوليتل منذ زمن طويل، ولم يشعر جيب بهذا الفخر من قبل.

تأهب الدكتور دوليتل صباح اليوم التالي للإبحار مجددًا.

فسأله عمدة البلدة: «ألا تود أن تمكث وقتًا أطول؟»

وقال الصبي: «أجل، لم لا تمكث حتى الشتاء؟»

رد الدكتور دوليتل: «آسف. علي أن أغادر. لقد طال غيابي عن وطني.»

وعاد هو وحيواناته سريعًا إلى سفينتهم، وأبحروا مجددًا، وتجمع كل أهل البلدة على الشاطئ ولوحوا لهم مودعين.

بلغ الطبيب والحيوانات إنجلترا في يوم مشرق مشمس، لكنهم لم يعودوا إلى بودلبي على الفور. أرسل الدكتور دوليتل أولًا السفينة إلى صديقه الصياد آملًا أن يسعد بسفينة القراصنة الجديدة.

كان البوشميبوليو بحلول هذا الوقت قد أحب الطبيب وجميع حيواناته، وعدّهم أسرته الجديدة. ولما كان يعي أن الدكتور دوليتل بحاجة إلى مال ليدير شئون منزله، أخبر الطبيب أنه يود مساعدته، وعرض عليه أن يعرضه على الناس مقابل نقود.

سأله الطبيب: «هل أنت متأكد من هذا؟ أعلم أنك خجول، ولا أريدك أن تشعر بعدم الارتياح.»

قال البوشميبوليو: «ستسرني مساعدتك، كما أنني لا أشعر بالخجل إلى هذا الحد بينكم. لا أشعر بالوحدة التي شعرت بها في الأدغال.»

جاب الطبيب وحيواناته البلاد، وتوقفوا في كل بلدة على طول الطريق ووضعوا لافتة كتب عليها:

«شاهدوا البوشميبوليو! خمسون سنتًا فقط!»

وأتى الناس من أميال بعيدة لمشاهدة هذا الكائن الغريب.

حقق الطبيب وحيواناته شهرة كبيرة، حتى إنهم اشتروا خيمة تتسع لمزيد من الناس كي يشاهدوا البوشميبوليو في نفس الوقت. لكن الدكتور دوليتل كان يسمح بالطبع للأطفال بالدخول ومشاهدة البوشميبوليو مجانًا عندما يعتقد أنه لا يوجد من يراه. وأغضب هذا داب داب، لكنها لم تحاول أن تمنعه. فكيف لها أن تمنعه إن كان هذا يشعره بالسعادة الشديدة؟

حظي عرضهم في نهاية الأمر بشعبية هائلة حتى إن رجال السيرك أتوا البلدة وأرادوا شراء البوشميبوليو، وعرضوا على الدكتور دوليتل مبلغًا طائلًا من المال مقابل شرائه. كان هذا مبلغًا كافيًا لأن يغني الطبيب عن القلق بشأن المال إلى الأبد، لكن الطبيب رفض.

قال: «آسف يا سادة؛ إنه صديق لي، ولا يسعني أن أبيع صديقًا. كما أنني وعدت بأن أعيده إلى موطنه إن شعر بالحنين إليه. كيف سأفعل هذا إن كان بالسيرك؟»

حاول رجال السيرك إقناع الطبيب بالعدول عن رأيه، وعرضوا عليه المزيد من المال، وأخبروه بأنهم سيسمحون له بزيارتهم متى أراد، لكن الطبيب ظل رافضًا بيع البوشميبوليو.

وعندما تبدل لون أوراق الأشجار، وتسللت البرودة إلى الجو، حان أوان العودة إلى بودلبي، فجمع الطبيب فرقته الصغير وعاد بها إلى بودلبي أون ذا مارش.

كان كل شيء على ما يرام في منزل الطبيب؛ إذ حافظ الحصان العجوز على سير أموره بلا مشاكل، فكان نظيفًا وظل فناؤه مرتبًا.

واضطلع الحصان نفسه بكل شيء بالطبع، وساعدته فئران الحقل والقنفذ متى سنح لهم هذا. وعرج أيضًا الصياد والجزار على منزل الطبيب وحرصا على أن يكون به ما يكفي من القش والماء النقي.

قال الحصان: «حتى أختك أتت لزيارتنا ونفضت الغبار عن الأثاث وكنست الأرض، وقدمت لنا الكثير من المساعدة.»

قال الدكتور دوليتل: «هذا لطف منها بالتأكيد.»

ولم يمض وقت طويل قبل أن يعود الجميع إلى وتيرة حياتهم السابقة؛ فعثرت تو تو على المكان المفضل لها من الحظيرة، وانزوى جاب جاب في ركن من فناء المنزل، وصنعت داب داب لنفسها عشًّا في شرفة المنزل، وذرع جيب فناء المنزل جيئة وذهابًا إلى أن وجد الشجرة المناسبة ليتمدد تحتها. كان يشعر بالفخر الشديد بطوقه الذهبي، حتى إنه كان يريه لكل من يمر به.

أما الدكتور دوليتل، فجاب أرجاء المنزل وتصفح كتبه وتفقد خزانات الأطباق لديه. الذهاب إلى أفريقيا كان مغامرة رائعة، لكنه مع ذلك كان شديد السعادة بالعودة إلى منزله.

وفي أفريقيا، كانت القردة على نفس الحال؛ فما إن قُضي على المرض الرهيب الذي أصابها، عادت إلى حياتها الطبيعية، وتأرجحت على الأشجار، ولعبت في الحقول، وأكلت الموز وأوراق الأشجار الخضراء.

وحكت ليلًا القصص بعضها لبعض. القصص نفسها التي قصها تشي تشي على الدكتور دوليتل وحيواناته عن السحالي العملاقة وحيوانات الماموث ذات الشعر الصوفي، وقصة الدكتور دوليتل العظيم الذي أتى لزيارة القردة وهي مريضة. وكان الجميع يفضلون قصة الدكتور دوليتل.

سأل قرد صغير: «ترى ما الذي يفعله الدكتور دوليتل الآن؟»

وسأل آخر: «هل تظنون أنه سيأتي لزيارتنا مجددًا قريبًا.»

قالت بولينيزيا التي كانت تمكث مع القردة: «بالطبع سيأتي، أنا واثقة من هذا. وما الذي سيمنعه من القدوم للزيارة؟ حقًّا، أحيانًا تكون القردة في غاية السخف.»

وصاح التمساح من مكانه بالقرب من النهر: «أنا واثق من أنه سيأتي! اخلدوا إلى النوم الآن!»

شعرت الحيوانات في أفريقيا بالقرب من الطبيب، مع أنها كانت على بعد آلاف الأميال منه. كانت تدرك أنه سيأتيها دائمًا إن احتاجت إليه، فخلدت جميعها إلى النوم ونامت تحلم بصديقها العزيز؛ الدكتور دوليتل في بودلبي أون ذا مارش.